النفس مستعدة ؛ لأن هناك تأميلا فى الخير وترهيباً من الشر ؛ لذلك يتبع الحق هذه الآية بآية أخرى فيقول :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ ﴾

وحين نسمع قوله : « أصحاب الجحيم » تتزلزل النفوس رهبة من تلك الصحبة التى نبرأ منها ، فالصحبة تدل على التلازم وتعنى الارتباط معاً ، وألا يترك أحدهما الآخر ؛ كأن الجحيم لا تتركهم ، وهم لا يتركون الجحيم ، بل تكون الجحيم نفسها فى اشتياق لهم . وللجحيم يوم القيامة عملان ؛ العمل الأول : الصحبة التى لا يقدر الكافر على الفكاك منها ، والثانى : لا تترك الجحيم فرصة للكافر ليفك منها . ويقول الحق عن النار :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة ق)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾

والذكر ـ كما عرفنا ـ يعنى استحضار الشىء إلى الذهن ؛ لأن الغفلة تطرأ على

الإنسان وعليه ألا يستمر فيها . وبعض أهل الإشراق والشطح يتلاعبون بالمواجيد النفسية فيقول واحد منهم : يعلم الله أنى لست أذكره . وحين يسمع الإنسان مثل هذا القول قد يوجه لصاحبه التأنيب والنقد العنيف ، لكن القائل يحلل الأمر التحليل العرفانى فيكمل بيت الشعر بالشطر الثانى :

« إذْ كيف أذكره إذْ لست أنساه » .

وهنا ترتاح النفس ، ويقول الحق هنا أيضاً : « نعمة الله » ولم يقل : « نعم » ؛ لأن كل نعمة على انفراد تستحق أن نشكر الله عليها ؛ فكل نعمة مفردة فى عظم وضخامة تستحق الشكر عليها ، أو أن نعمة الله هى كل فيضه على خلقه ، فأفضل النعمة أنه ربنا ، وسبحانه يقول : « اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم » . ومادام قد جاء بـ « إذ » فالمراد نعمة بخصوصها ؛ لأن « إذ » تعنى « حين » فالحق يوضح : اذكروا نعمة الله عليكم فى ذلك الوقت الذى حدثت فيه هذه المسألة ، لأنه جاء بزمن ويطلب أن نذكر نعمته فى هذا الموقف ، إنه يذكرنا بالنعمة التى حدثت عندما همّ قوم ببسط أيديهم إليكم .

وهناك « قبض » لليد و« بسط » لليد . والبسط المنظور أن ترى النعمة . وفى الآية تكون النعمة هى كف أيدى الكافرين ، ذلك أن أيديهم كانت ممدودة بالسوء والشر . ولو وقفنا عند بسط اليد ؛ لظننا أنه سبحانه قد جعل من أسباب خلقه معبراً للنعم علينا أى أن نعم الله تعبر وتصل إلينا عن طريقهم وبأيديهم ، لكن هذا ليس مرادا من النص الكريم ؛ لأننا حين نتابع قراءة الآية ، نعرف أن كف أيديهم هو النعمة ، فهؤلاء القوم أرادوا أن يبسطوا أيديهم بالإيذاء . ويقولون عن بذاءة اللسان : « بسط لسانه » ويقولون أيضاً : « بسط يده بالإيذاء » .

ونعرف أن الحق جاء بـ « إليكم » أو « عنكم » وكلاهما فيه ضمير يعود على المؤمنين مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فالمؤمنون ملتحمون بمنهج النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا همّ قوم أن يبسطوا أيديهم إلى رسول الله ، ففى ذلك إساءة للمؤمنين برسول الله ؛ لأن كل شىء يصيب رسول الله ، يصيب المؤمنين أيضاً . وكانت هناك واقعة حال فى زمن مقطوع وسابق، فهل يعنى الحق سبحانه وتعالى بحادثة بنى

النضير ، وكان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنى النضير معاهدة ألا يعينوا عليه خصوم الإسلام وإذا حدث قتل من جهة المسلمين فعلى بنى النضير المعاونة فى الدية ، وكان النبى قد أرسل مسلماً فى سرية فقتل اثنين من المعاهدين خطأ ، فطالبوا بدية للقتيلين . ولم يكن عند النبى ؛ مال فذهب إلى بنى النضير كى يساعدوه بدية القتيلين ، فقالوا له : « مرحبا » نطعمك ونسقيك وبعد ذلك نعطيك ما تريد ، ثم سلطوا واحداً ليرمى الرسول بحجر . فصعد الرجل ليلقى على الرسول صخرة ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قاعد إلى جانب جدار من بيوتهم فأخبر الحق رسوله فقام خارجاً ، ولم ينتظر شيئا .

« إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم » لقد أخبر الحق نبيه بما يبيتون قبل أن يتمكنوا من الفعل . و « الهمّ » هو حديث النفس ، فإذا ما خرج إلى أول خطا النزوع فذلك هو القصد ، و« الهم » هو الشيء الذى يغلب على فكر الإنسان فى نفسه ويكون مصحوباً بغم .

وفى اللغة الدارجة نسمع من يقول : « أنا فى هم وغم » ؛ لأن « الهم » هو الأمر الذى لا يبارح النفس حديثاً ويسبب الغم . فالهم هو العدو الذى لا يقدر أن يقهره أحد ؛ لأنه يتسرب إلى القلب ، أما أى عدو آخر فالإنسان قد يدفعه ، ونعرف عن سيدنا الإمام على ـ رضوان الله عليه وكرم الله وجهه ـ أنه كان مشهوراً بأنه المفتى ؛ فهو يُستفتى فى الشيء فيجيب عليه ، لدرجة أن سيدنا عمر نفسه يقول : « قضية ولا أبا حسن لها » أى أنها تكون قضية معضلة إذ لم يوجد أبو حسن لها فيحلها ، وكان سيدنا عمر يستعيذ من أن يوجد فى مكان لا يوجد به سيدنا على . وعندما عرف الناس عنه ذلك تساءلوا : من أين يأتى بهذا الكلام ؟. فجاءوا بلغز وانتظروا كيف يخرج منه . فقالوا : إن الكون متسع وفيه أشياء أقوى من كل الأشياء ، وقوى تتسلط على قوى ، وحاولوا الاتفاق على شيء أقوى من كل الأشياء ؛ فقال واحد : الجبل هو أقوى الأشياء . وقال الآخر : لكنا نقطع منه الأحجار بالحديد . وبينما هم يسلسلون هذه السلسلة جاء سيدنا على فقالوا له : يا أبا الحسن ما أشد جنود الله ؟.

فأجاب سيدنا على ـ كرم الله وجهه ـ كأنه يقرأ من كتاب بدليل أنه عرف جنود الله وعرف الأقوى وحصر عددهم ، وقال سيدنا على : أشد جنود الله عشرة .

وكأنه انشغل بهذه المسألة من قبل ، ودرسها .

قال : الجبال الرواسي والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض يحمل الماء ، والريح يقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب أو الشيء ويمضى لحاجته ؛ والسُكر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السكر ، والهم يغلب النوم ، فأشد جنود الله الهم . ولا يمكننا أن نمر على كلمة « الهم » فى القرآن إلا أن نستعرض مواقعها فى كتاب الله . وأهم موقع من مواقعها نتعرض له من أسئلة الكثيرين فى رسائلهم وفى لقاءاتنا معهم هو مسألة يوسف عليه السلام حينما قال الحق سبحانه وتعالى بخصوص مراودة امرأة العزيز له :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة يوسف)

ولنحقق هذه المسألة ، فالذين يستبعدون على سيدنا يوسف عليه السلام هذا الأمر ، يستبعدون على صاحب العصمة أن يُفكر فى نفسه ، وإن كان التفكير فى النفس لم يبلغ العمل النزوعى فهو محتمل . بل قد يكون التفكير فى الشىء ثم عدول النفس عنه أقوى من عدم التفكير فيه ، لأن شغل النفس بهذا الأمر ثم الكف يعنى مقاومة النفس مقاومة شديدة . ولكنهم يُجِلّون ويعظمون ـ أيضاً ـ سيدنا يوسف عن أن يكون قد مر بخاطره هذا الأمر فضلاً على أن يوسف ـ عليه السلام ـ لم يكن قد أرسل إليه، أى أنه لم يكن رسولا آنذاك .

الآية تقول :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة يوسف)

أى أن امرأة العزيز هى التى بدأت المراودة ليوسف عليه السلام فهل تم نزوع إلى العمل ؟. لا ، لأن النزوع إلى العمل يقتضى أن يشارك فيه سيدنا يوسف . إذن فـ « همت به » أى صارت تحب أن تصنع العملية النزوعية وجاء المانع من سيدنا يوسف . وبالنسبة للمُرَاوَدِ وهو سيدنا يوسف ، قال الحق :

﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة يوسف)

ونضرب لذلك مثلاً حتى نفهم هذا ؛ إذا قال لك قائل : أزورك لولا وجود فلان عندك ، هذا يعنى أن القائل لم يزرك ، وبالقياس نجد أن يوسف عليه السلام رأى البرهان فلم يهم . فمن أراد أن ينزه يوسف حتى عن حديث نفسه نقول : الأمر بالنسبة لها أنها همت به ، وحتى يتحقق الفعل كان لا بد من قبول لهذا الأمر ، وصار الامتناع لكنّه ليس من جهتها بل جاء الامتناع من جهته . وهو قد همّ بها لولا أن رأى برهان ربه .

لماذا جاء الحق : بأنه همَّ بها لو أن رأى برهان ربه ؟ جاء الحق بتلك الحكاية ليدلنا على الحكمة فى امتناع يوسف عن موافقته على المراودة ، فلم يكن ذلك عن وجود نقص طبعى جسدى فيه ، ولولا برهان ربه لكان من الممكن أن يحدث بينهما كل شىء . وأراد الحق أن يخبرنا أن رجولته كاملة وفحولته غير ناقصة واستعداده الجنسى موجود تماماً ، والذى منعه من الإتيان لها هو برهان ربه ، إنه امتناع دينى . لا امتناع طبيعى . وبذلك يكون إشكال الفهم لمسألة الهم عند امرأة العزيز ويوسف قد وضح تماماً .

ونعود إلى الآية التى نحن بصددها : « إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم » وكلمة « قوم » إذا سمعتها ففيها معنى القيام ، والقيام هو أنشط حالات الإنسان . وكما أوضحنا من قبل نجد الإنسان إما أن يكون قائما وإما أن يكون قاعدا وإما مضطجعا وإما مستلقيا وإما نائما . ونجد أن الراحات على مقدار هذه المسألة ، فالقائم هو الذى يتعب أكثر من الآخرين ؛ لأن ثقل جسمه كله على قدميه الصغيرتين ، وعندما يقعد فإن الثقل يتوزع على المقعدة . وإذا اضطجع فرقعة الاحتمال تتسع . ولذلك يطلقونها على الرجال فقط ؛ لأن من طبيعة الرجل أن يكون قواماً ، ومن طبيعة المرأة أن تكون هادئة وديعة ساكنة مكنونة . فالقوم هم الرجال ، ومقابل القوم هنا « النساء» . إذن فالنساء ليس من طبيعتهن القيام .

والشاعر يقول :

وما أدرى ولست إخال أدرى
أقوم آل حصن أم نساء

وحين يقول الحق : « إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم » فمعنى ذلك أنّه لم يكن هناك نساء قد فكرن فى أن يؤذين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونجد هنا أيضاً أن البسط مجال تساؤل ، هل البسط يعنى الأذى أو الكرم ؟.

والحق يقول :

﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الشورى)

هذا (فى مجال العطاء) أما فى مجال الأذى فالحق يقول على لسان ابن آدم لأخيه :

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة المائدة)

والأيدى لاتطلق إلا إذا أردنا حركة نزوعية تترجم معنى فى النفس سبق أن مرّ على العقل من قبل ، فمد الأيدى يقتضى التبييت بالفكر ، وهكذا نعرف أن القوم قد بسطوا أيديهم إلى رسول الله والمؤمنين .

وعندما ننظر فى التاريخ المحمدى مع أعدائه ، نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

أى أنهم قعدوا للتبييت . ونحن لا نعرف ذلك التبييت إلا إذا امتدت الأيدى للعمل ، فقد مكروا وبيتوا للشر وأرادوا أن يثبتوا رسول الله أى أرادوا تحديد إقامته بحبسه أو تقييده أو إثخانه بالجراح حتى يوهنوه ويعجزوه فلا يستطيع النهوض والقيام أو يقتلوه أو يخرجوه من بلده . بإثباته ومنعه فلا يبرح ، أو يخرجوه من المكان كله أو يقتلوه ، فماذا كان الموقف ؟

لقد هموا أن يبسطوا إليه أيديهم . وبسط اليد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

يؤذى المؤمنين كلهم ، لأنه لا يستقيم أمر المؤمنين إلا برسول الله ، فلو بسط الكفار أيديهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، لكان معنى ذلك بسط أيديهم على الكل . ويأتى التاريخ المحمدى بأمور يبسط فيها الكافرون أيديهم بالأذى إلى رسول الله وإلى المؤمنين ويكف الله أيديهم ويمكر بهم أى يجازيهم على ذلك بالعقاب .

والمكر - كما نعلم - هو الشجر الملتف بعضه على بعضه الآخر حيث لا نعرف أى ورقة تنمو من أى جذع أو فرع . والمكر فى المعانى هو التبييت فى خفاء . وهو دليل ضعف لا دليل قوة . فالأقوياء يواجهون ولا يبيتون ؛ ولذلك يقال : إن الذى يكيد لغيره إنما هو الضعيف ؛ لأن الإنسان الواضح الصريح القادر على المواجهة هو القوى . ونجد البعض يجعل ضعف النساء دافعا لهن على قوة المكر استنادا لقول الحق :

﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾

(من الآية ٧٦ سورة النساء)

وإلى قول الحق :

﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة يوسف)

فلا يكيد إلا الضعيف . ومن لا يقدر على المواجهة فهو يبيت ، ولو كان قادراً على المواجهة لما احتاج إلى ذلك . وقد يمكر البشر ويبيتون بخفاء عن غيرهم . لكنهم لا يقدرون على التبييت بخفاء عن الله ، لأنه عليم بخفايا الصدور . وأمر الحق فى التبييت أقوى من أمر الخلق ؛ لذلك نجد قوله سبحانه :

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأنفال)

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

ولنلحظ أن تبييت الله خير . وقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُعلم أعداء الإسلام أنه بعد هذا التبييت لن تنالوا من رسولى ، لن تنالوا منه بكل وسائلكم سواء أكانت تعذيباً لقومه أم تبييتا له . وعلى الرغم من أنهم بيتوا كثيراً إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من بيته فى مكة إلى المدينة وهم نائمون :

﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

(من الآية ٩ سورة يس)

ونجد العجب فى كف أيدى الكافرين عن رسول الله . فكل أجناس الوجود قد اشتركت فى عملية كف أيدى الكافرين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء أكانت تلك الأجناس جماداً أم نباتاً أم حيواناً أم إنساناً ، نثر رسول الله التراب وهو جماد فأغشى به الكافرين ، وصار التراب من جنود الله .

وها هى ذى أسماء بنت أبى بكر تحمل الطعام لهم فى الغار وهى ترعى الغنم ، والأغنام تجد الحشائش فترعاها وتزيل الأثر الذى أحدثه ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد اشترك النبات فى كف أيدى الكافرين عن رسول الله ، وكذلك الأغنام وهى من الحيوان ، وكذلك فرس سراقة التى ساخت وغاصت قوائمها فى الأرض ، ثم الحمامة التى بنت عشها على الغار ، وكذلك العنكبوت الذى بنى بيته على الغار ، ورضخت كل جنود الله لأمر الله فشاركت فى عملية كف أيدى الكافرين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والأعجب من ذلك أن الحق سبحانه وتعالى قد كف أيدى الكافرين بالكافرين ، فالرسول الذى جاء ليهدى الخلق ويسير بهم إلى النور من الظلمات ، نجد الذى يهديه فى طريقه إلى المدينة هو أحد الكفار . وهكذا نرى أن هداية المعانى تستخدم هداية المادة ، والرسول هو الحامل لهداية المعانى يستخدم هداية المادة ممثلة فى ذلك الكافر . ونعرف أن من جنود الإسلام فى دار الهجرة كان اليهود ـ برغم أنوفهم ـ ألم يقولوا للأوس والخزرج : سيأتى من بينكم نبى نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم ؟ فلما سمع الأوس والخزرج أن نبياً ظهر فى مكة ، قالوا : هذا هو النبى الذى توعدتنا به

اليهود ، فلا يسبقنكم إليه ، فسبقوا إليه وأسلموا وبايعوه ، فقد ورد أن يهودا كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه . فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة : يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهل شرك وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته ، فقال سلام بن مشكم أخو بنى النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه وما هو بالذى كنا نذكر لكم[1] .

ثم كانت المدينة داراً للهجرة .

هكذا نرى أن الباطل يخدم الحق ، والكفر يخدم الإيمان ، فها هو ذا عبدالله بن أريقط ـ وكان كافراً ـ يضع نفسه كدليل للرسول وصاحبه أثناء الهجرة ولا ينظر إلى الجُعْل الذى رصدته قريش لمن يأتيها بمحمد . هكذا نجد أن كف الأيدى كانت له صور كثيرة .

وقد تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم لأشياء ومواقف رآها الصحابة ، ونشأت له خوارق من الحق سبحانه وتعالى تؤيد صدقه ، وشاهد تلك الخوارق بعض الصحابة ولا نقول عنها معجزات ؛ لأن معجزة الإسلام إلى قيام الساعة هى القرآن . ولكن رسول الله لم تخل حياته من بعض المعجزات الكونية مثل التى حدثت لغيره من الرسل . وأرادها الحق لا للمسلمين عموماً ولكن شاهدها بعضهم كما شاهدها بعض الكفار ؛ لأن رسول الله كان فى حاجة إلى أن يؤكد له الله أنه رسول الله . فها هو ذا سيدنا جابر بن عبدالله يقول :

« كان بالمدينة يهودى وكان يسلفنى فى تمرى إلى الجذاذ ، وكان لجابر الأرض التى بطريق رومة فجلست[2] فخلا[3] عاما فجاءنى اليهودى عند الجذاذ[4] ولم أجد منها شيئا ، فجعلت استنظره[5] إلى قابل فيأبى فأخبر بذلك النبى صلى الله عليه وسلم

(١) تفسير ابن كثير عن محمد بن إسحاق مرويا عن ابن عباس.

(٢) فجلست : أى فتأخرت الأرض عن الإثمار ، وفى رواية فخاست أى خالفت ما كان معهودا منها من التمر

(٣) فخلا : أى تأخر السلف عاما .

(٤) الجذاذ : (بكسر الجيم وفتحها وبالذال المعجمة ويجوز إهمالها) زمن قطع تمر النخل .

(٥) أستنظره : أطلب منه أن يمهلنى .

فقال لأصحابه : امشوا نستنظر لجابر من اليهودى ، فجاءونى فى نخلى فجعل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكلم اليهودى فيقول : أبا القاسم لا أُنظره ، فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم قام فطاف فى النخل ثم جاءه فكلمه فأبى ؛ فقمت فجئت بقليل رطب فوضعته بين يدى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأكل ثم قال : أين عريشك يا جابر ، فأخبرته فقال : افرش لى فيه ففرشته ، فدخل فرقد ثم استيقظ فجئته بقبضة أخرى فأكل منها ثم قام فكلم اليهودى فأبى عليه ، فقام فى الرطاب فى النخل الثانية ثم قال : يا جابر ، جذ واقض ؛ فوقف فى الجذاذ فجذذت منها ما قضيته وفضل منه فخرجت حتى جئت النبى صلى الله عليه وسلم فبشرته فقال : أشهد أنى رسول الله »[1] .

مثال آخر : كان الماء قليلاً عند قوم من الصحابة فيغمس رسول الله يده فى الماء ويشرب كل الناس . وهل يجرؤ أحد من الذين رأوا تلك المعجزة أن يجادل فيها ؟ طبعاً لا ، لكن هل هذه المعجزة لنا ؟ إن وثقنا فيمن أخبر فلن نستكثر على الله أن يكثر الماء لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن نحن نعلم أن الله قد تكفل بحفظ القرآن ليكون هو المعجزة الباقية فقال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وقال : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

وقد ثبت أن رسول الله جمع قليلا من الزاد ودعا ما شاء الله أن يدعو وأطعم به جيشا . والذى عاش بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم له أن يصدق تلك المعجزات أو لا يصدقها ، ولكن على المؤمن الذى علم مقام ومكانة الرسول عند ربه ، أن يصدق تلك الخوارق متى ثبت ذلك بطريق يقينى قطعى ، ولذلك لا ضرورة لإقامة الجدل مع هؤلاء الذين ينكرون المعجزات الكونية . ونقول لهم : ليس أحدكم مسئولا بهذه المعجزات ، أنت مسئول بمعجزة القرآن فقط . والخوارق التى وقعت إما أن تكون بغرض تثبيت رسول الله مصداقا لقوله الحق :

﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الفرقان)

---

(١) رواه البخارى ومسلم (متفق عليه) .

وإما أن تكون لتثبيت أصحاب رسول الله ؛ فقد كانت الأهوال تمر عليهم وتزلزلهم :

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وكان لا بد أن ترسل السماء لهم آيات لتثبت أقدامهم فى الإيمان .

والخلاصة أن كل الخوارق الكونية التى حدثت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليس المقصود بها عامة المسلمين ، ولكن المقصود بها من وقعت له أو وقعت أمامه ، ونفض بذلك أى نزاع حول تلك الخوارق ؛ لأن المعجزة الملزمة للجميع هى كتاب الله سبحانه وتعالى .

وقد همّ بالأذى كثير من أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم . ألم ترد امرأة من اليهود أن تسمّه وكف الله يديها ؟ وحكاية بنى النضير الذين أرادوا أن يلقوا عليه الحجر ، فقام قبل أن يلقى مندوب بنى النضير الحجر عليه صلى الله عليه وسلم .

وها هو ذا صفوان بن أمية له ثأر عند رسول الله من غزوة بدر يستأجر عمير ابن وهب الجمحى ويقول له : اذهب إلى المدينة واقتل محمداً وعلىّ دينك ، أنا أقضيه عنك وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا .

ويذهب عمير إلى المدينة ويدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « ما جاء بك يا عمير ؟ قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا إليه ـ وكان له ابن أسير لدى المسلمين ـ قال : فما بال السيف فى عنقك ؟ فقال : قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئا ؟ قال : أصدقنى ما الذى جئت له ؟ قال : ما جئت إلا لذلك . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحِجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثم قلت لولا دين علىّ وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمداً فتحمل صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى له ، والله حائل بينك وبينى فقال عمير . أشهد أنك رسول الله . قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحى .

وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إنى لأعلم ما آتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام »[١] .

ومثال آخر : ما رواه سيدنا جابر ـ رضى الله عنه ـ فى غزوة ذات الرقاع . « قال : جاء رجل يقال له غورث بن الحارث فقام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف فقال : من يمنعك منى ؟ قال : الله . فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف وقال : (ومن يمنعك منى) ؟ فقال : كن خير آخذ . قال : تشهد أن لا إله إلا الله ؟ قال : لا ، ولكن أعاهدك على ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك . فخلى سبيله فأتى أصحابه وقال : جئتكم من عند خير الناس »[٢] .

وعندما سمع الرجل لأول مرة أن الله هو الذى يمنع الرسول منه وقع السيف من يده ، ذلك أن ذرات الكفر فى الرجل تزلزلت وعاد إلى إيمان الفطرة ، وعندما أمسك النبى بالسيف وسأل الرجل : من يمنعك منى ؟ لم يقل الرجل:« هبل » أو « اللات » أو « العزى » فالرجل يعلم أن مسألة الأصنام كذب فى كذب ، ولو كان مؤمناً بآلهته لقال أحد أسمائها . وعندما تزلزلت ذرات الكفر فى كيانه عاد إلى الفطرة الأولى التى لا تكذب أبداً . وإن كذب الإنسان على الناس جميعاً لا يكذب على نفسه . وكلمة « الله » هى التى زلزلت كفر الرجل وأعادته إلى الحق .

وفى معركة بدر نجد أن سيدنا أبا بكر الصديق كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما ابنه عبدالرحمن كان مع الكفار ، وبعد أن أسلم ابنه بفترة جلس الولد مع أبيه يتسامران ، فقال الابن : لقد رأيتك يوم أحد فصدفت[٣] عنك فقال أبو بكر : لكنى لو رأيتك ما صدفت عنك[٤] . فقد رأى ابن أبى بكر والده ولم يقتله ، ولاشك أن مقارنة نفسية باطنية فكرية قد حدثت بين معزة أبيه وبين مكانة هبل أو تلك الحجارة ، وعرف ابن أبى بكر أن والده أفضل بكثير من تلك الأحجار . ولكن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام عن ابن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير .

(٢) البيهقى عن جابر وفى البداية (٨٤/٤) .

(٣) صدفت عنك : أعرضت عنك .

(٤) أخرجه ابن أبى شيبة عن أيوب وأخرج الحاكم عن أيوب نحوه .

أبا بكر حينما يقول : ولو كنت رأيتك لقتلتك ، فالمقارنة النفسية هنا تكون بين الإيمان بالله وبين الابن ، ومن المؤكد أن الإيمان يغلب فى نفس أبى بكر . وكل من أبى بكر وابنه كان منطقيا مع نفسه .

ومثال آخر : « عن جابر بن عبدالله أنه غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قبل نجد فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قفل معه فأدركتهم القائلة ـ شدة الحر فى وسط النهار ـ فى وادٍ كثير العضاه ـ شجر عظيم له شوك ـ فنزل رسول الله ، وتفرق الناس فى العضاه يستظلون بالشجر ونزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تحت سَمُرَة فعلق بها سيفه ، قال جابر : فنمنا نومة فإذا رسول الله يدعونا فجئناه فإذا عنده أعرابى جالس فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن هذا اخترط سيفى وأنا نائم فاستيقظت وهو فى يده صلتاً فقال لى : من يمنعك منى ؟ فقلت له : الله . فها هو ذا جالس ثم لم يعاقبه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ »[1] .

ولماذا حدث ذلك ؟ لأن الفطرة المستلهمة بدون تدخل من أحد تنضح بالإيمان . وها نحن أولاء نرى الصحابة فى العهد الأول حينما اضطهدوا فى مكة وهاجروا هجرتهم الأولى إلى الحبشة ؛ هل ذهبوا إليها خبط عشواء ؟ أو ذهبوا بتخطيط نبوى كريم ؟ لقد درس النبى أولاً الأرض التى تصلح لاستقبالهم ويقبلهم فيها أهلها كمهاجرين . ودرس النبى أوضاع الجزيرة العربية ووجد أن قريشا تتمكن من كل قبيلة فى الجزيرة العربية عندما يأتى موسم الحج ؛ لذلك لن توجد القبيلة التى تحمى المهاجرين فيقول لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه »[2] .

---

(١) رواه البخارى فى المغازى وعند ابن إسحاق بعد قوله : (الله) فدفع جبريل فى صدره فوقع السيف من يده فأخذه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : من يمنعك منى . قال : لا أحد . وعند الواقدى أنه أسلم ورجع إلى قومه فاهتدى به خلق كثير .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام عن ابن إسحاق .

وبالفعل ذهب المسلمون إلى الحبشة مهاجرين . وحاولت قريش أن تسترد المسلمين من أرض النجاشي . وأرسلت قريش بعثة لاستردادهم ورفض النجاشي . وسمع النجاشي عن النبي صلى الله عليه وسلم وعلم أنه النبي الذي بشر به الإنجيل . ولاشك أن النجاشي قد أسلم لأن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على النجاشي عندما مات . وكان إسلام النجاشي مكافأة له من الله ؛ لأنه حمى المؤمنين بالله وبرسوله عنده . وما أعظم المكافأة التي نالها النجاشي أن يموت على الإسلام وأن يصلي عليه سيدنا رسول الله صلاة الغائب .

إن كل هذا من كف أيدي الكافرين عن المؤمنين وعن رسول الله ، ومن أجل أن يثبت الحق للجميع أن المؤمنين على حق وأن الله لن يخذلهم ، فلا يخطر ببال المؤمنين أن عدوهم أقوى منهم ؛ فالله أقوى من خلقه . « فكف أيديهم عنكم » وكف أيدي الكافرين عن المؤمنين لأنه ـ سبحانه ـ يعد المؤمنين ليكونوا حملة منهجه إلى الخلق . ولذلك يجب أن يداوم المؤمنون على تكاليف الإيمان وتقوى الله ليكف الله أيدي الكافرين عنهم ، فلا يتغلب كافر على مؤمن في لحظة من اللحظات إلا إذا كان المؤمن قد تخلى عن شيء في منهج الله ؛ لأن الحق لا يقول قضية قرآنية ثم يترك القضايا الكونية التي تحدث في الحياة لتنسخ هذه القضية القرآنية . لقد قال :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

إذن فعندما ترى جنداً من المسلمين قد انهزموا فلتعلم أنهم قد تخلوا عن منهج الله فتخلى الله عنهم ، بدليل أن بعضاً من المسلمين ساعة لم ينفذوا ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم غلبهم الكفار ، فالله لا يغير سنته من أجل أناس نُسبوا إليه ولم ينفذوا تعاليم منهجه . والحق يقول :

﴿ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة محمد)

ويقول سبحانه :

﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة البقرة)

إنك إن انتسبت إلى الإسلام فيجب أن تنتسب إلى الإسلام بحق ، وإن رأيت المؤمنين قد دخلوا معركة وانهزموا فلتبحث مصادر تخليهم عن منهج الحق ، فسبحانه يقول :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

لقد أصاب المقاتلين مع النبى شىء ، فلم يضعفوا ولكنهم صبروا وطلبوا من الحق أن يغفر لهم ذنوبهم ، لقد عرفوا مصادر ضعفهم واستعانوا بالله على هذا الضعف ، فماذا فعل الله لهم ؟. نصرهم سبحانه بأن آتاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين . وكل ذلك السلوك الإيمانى الذى يقى من الهزيمة وكيد العدو ، هو من تقوى الله ، حتى يظل المؤمنون فى معية الله . وعندما يكون المسلم فى معية الله لا يجرؤ خلق من خلق الله أن ينال منه . وننظر إلى الهجرة كمثال لذلك ؛ لنجد أن سيدنا أبا بكر كان حريصاً على حماية النبى صلى الله عليه وسلم . فعن أنس بن مالك قال : « لما كان ليلة الغار ، قال أبو بكر : يا رسول الله دعنى فلادخل قبلك فإن كانت حيّة أو شىء كانت لى قبْلك . قال : ادخل ، فدخل أبو بكر فجعل يلتمس بيديه فكلما رأى جُحراً جاء بثوبه فشقه ثم ألقمه الجحر حتى فعل ذلك بثوبه أجمع ، قال : فبقى جحر فوضع عقبه عليه ثم أدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فلما أصبح قال النبى صلى الله عليه وسلم : « فأين ثوبك يا أبا بكر ؟» فأخبره بالذى صَنع فرفع النبى صلى الله عليه وسلم يده فقال : « اللهم اجعل أبا بكر معى فى درجتى يوم القيامة » فأوحى الله تعالى إليه « إن الله قد استجاب لك »[1] .

ويرى أبو بكر الكفار وهم يمرون أمام الغار فيقول لرسول الله : « لو أن أحدهم

(١) ابو نعيم فى الحلية .

نظر تحت قدميه لأبصرنا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما »[1] .

وفى ذلك رد كامل ؛ لأن الاثنين فى معية الله ، ومادام المؤمن فى معية من لا تدركه الأبصار فلن تدركه الأبصار ، كيف ؟. نحن لا نعرف كل أسرار الله ولكنه القادر الأعلى .

وفى حياة البشر نجد الطفل الصغير قد يخرج بمفرده فيصيبه غيره من الأطفال بالضرر ؛ ولكن إذا خرج الطفل مع عائله ، مع أبيه مثلاً أو مع أخيه الأكبر ، فالأطفال لا يقتربون منه ؛ فما بالنا ونحن جميعاً عيال الله ؛ وماذا يحدث عندما نتشبث بمعية الله ؟. إذن فتقوى الله هى التى تجعل المؤمن فى معية ربه طوال الوقت . ومن يُرِدِ المؤمن بسوء فإن جنود الله تحمى المؤمن . ويذيل الحق الآية : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . وإياكم أن تقولوا:إننا بلا عَدَد أو عُدَّة . إنك مسئول أن تعد ما تقدر عليه وتستطيعه وأترك الباقى لله :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

ويقول التاريخ الإيمانى لنا إنه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله . وقد يقول قائل : هذه المسألة مادية تحتاج إلى عدد وعُدد . ونرد : إن الحق قد طالب بأن نعد ما نستطيعه لا فوق ما نستطيعه . وهو سبحانه عنده من الجند اللطيف الخفىّ الدقيق الذى لا يُرى :

﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأنفال)

ومادام الله قد ألقى الرعب فى قلوب الأعداء فالمسألة تنتهى ولا تفلح عُدد أو عَدَد . ويكون التوكل على الله بعد أن يعد الإنسان ما يستطيعه وهو الاستكمال الفعّال للنصر ، ولنعلم أن التوكل غير التواكل . إن المتوكل على الله يقتضى أن يعلم الإنسان أن لكل جارحة فى الإنسان مهمة إيمانية ، أن تطبق ما شرع الله ؛ فالأذن تسمع ، فإن سمعت أمراً من الحق فأنت تنفذه ، وإن سمعت الذين يلحدون فى

(١) متفق عليه .

آيات الله فأنت تعرض عنهم . واللسان يتكلم ، لذلك لا تقل به إلا الكلمة الطيبة ؛ فلكل جارحة عمل ، وعمل جارحة القلب هو اليقين والتوكل ، ولتتذكر أن السعى للقدم ، والعمل لليد والتوكل للقلب ، فلا تنقل عمل القلب إلى القدم أو اليد ؛ لأن التوكل الحقيقى أن تعمل الجوارح وتتوكل القلوب ، وكم من عامل بلا توكل فتكون نتيجة عمله إحباطاً .

إننا نجد الزارع الذى لا يتوكل على الله ينمو زرعه بشكل جيد ومتميز ثم تهب عليه عاصفة أو يتغير الجو فيصيبه الهلاك وتكون النتيجة الإحباط . واحذر إهمال الأسباب ؛ أو أن تفتنك الأسباب ؛ لأنك إن أهملت الأسباب فأنت غير متوكل بل متواكل . تنقل عمل القلب إلى الجوارح . وإذا قال لك واحد : أنا لا أعمل بل أتوكل على الله ، قل له : هيا نر كيف يكون التوكل . وأحضر له طبق طعام يحبه . وعندما يمد يده إلى الطعام ، قل له : اترك الطعام يقفز من الطبق إلى فمك .

ويجعل الحق سبحانه وتعالى من قصص الرسل على رسول الله صلى الله عليه وسلم تثبيتاً للإيمان وتربية للأسوة وإنماء لها ، حتى لا يضيق صدر الرسول صلى الله عليه وسلم بما يفعله اليهود أو المشركون ، فإن كان قد حدث معك ـ يا محمد ـ شىء من هذا الإنكار والإيلام ، فقد حدث الكثير من تلك الأحداث مع الرسل من قبلك ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن

تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾

يُذَكِّر الحق هنا رسوله بالميثاق الذى أخذه من بنى إسرائيل . وقد يكون المقصود هو ميثاق الذر أو يكون المراد بالميثاق ما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾

(سورة آل عمران)

أو أن يكون المراد بالميثاق هو ما بينه بقوله سبحانه :

﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة البقرة)

ويقول سبحانه : « وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً » ولنر « التكتيك » الدينى الذى أراده الحق ، فهو لا يجمع أجناس الخلق المختلفة على واحد من نوع منها ؛ لأن ذلك قد يعرض الدعوة لعصبية ؛ فاختار سبحانه اثنى عشر نقيباً على عدد الأسباط حتى لا يقولن سبط : كيف لا يكون لى نقيب ؟. وحسم الله الأمر ، ولم يجعله محلا للنزاع ؛ فجعل لكل سبط نقيباً منهم . والنقيب هو الذى يدير حركتهم العقدية والدينية . وساعة نسمع كلمة « نقيب » نعرف أنها من مادة « النون و القاف والباء » ، « والنقب » هو إحداث فجوة لها عمق فى أى جسم صلب .

إن اختيار الحق لكلمة نقيب ، يَدل على أن النقيب الصادق ينبغى أن يكون صاحب عينين فى منتهى اليقظة حتى يختار لكل فرد المهمة التى تناسبه ويركز على كل فرد بما يجعله يؤدى عمله بما ينفع الحركة الكاملة . وبذلك يكون كل فرد فى السبط له عمله ومكانه المناسب . ولا يتأتى ذلك إلا بالتنقيب ، أى معرفة حالة كل واحد وميوله فيضعه فى المكان المناسب .

إذن فالنقيب هو المنقب الذى لا يكتفى بظواهر الأمور بل ينقبها ليعرف ظروف وأسباب كل واحد . واختار الحق من كل سبط نقيباً ، ولم يجعل لسبط نقيباً من سبط

آخر حتى يمنع السيطرة من سبط على سبط ، ويمنع أن يكون النقيب على جهالة بمن يريد حركتهم من الأسباط الآخرين .

ونحن نسمع فى حياتنا اليومية وصفاً لإنسان : فلان له مناقب كثيرة ، أى أن له فضائل يذكرها الناس ، كأنّ على صاحب الفضائل ألا يتباهى بها بنفسه بل عليه أن يترك الناس لينقبوا عن فضائله ، ولذلك كانت كنوز الأرض وكنوز الحضارات مدفونة ننقب عليها ، أما ما يظهر على سطح الأرض فتذروه الرياح وعواملُ التعرية ولا يبقى منه شيء .

إذن فكلمة « نقيب » فى كل مادتها تدور حول الدخول إلى العمق ، لذلك تصف الرجل الفاضل : فلان له مناقب أى إن نقبت وجدت له فضائل تذكر ، وقد أعطاه الله موهبة الخير ولا يتعالم بها ، بل يدع الناس هم الذين يحكمون ويذكرون هذه الصفات . ومن نفس المادة « النقاب » أى أن تغطى المرأة وجهها .

وقوله الحق: « إنى معكم » يعطيهم خصلة إيمانية ، فلا يظنن أحد أنه يواجه أعداء منهج الله بذاته الخاصة بل بمعونة الله فلا يضعف أحد أو يهن مادام مؤمناً ، وكما قال الحق :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

وبعد أن يعد المؤمنون ما استطاعوا فليتركوا الباقى على الله .. وجاء أيضاً قوله : « وقال الله إنى معكم » أى أن كل نقيب على سبط ليس له مطلق التصرف ، ولكن الله يوضح : « أنا معكم وسأنظر كيف يدير كل نقيب هذه المسائل » أى أنه سبحانه وتعالى مطلع على واقعكم ، فليس معنى الولاية أن يكون للوالى مطلق التصرف فى جماعته ؛ لا ؛ لأن الله رقيب . وقوله الحق : « إنى معكم » تدل على أن من ولى أمراً فلا بد أن يتابعه ويراه .

وبعد ذلك قال : « لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم » . و« لئن » تضم شرطاً وقسماً ، كأن الحق يقول : وعزتى لئن أقمتم الصلاة وفعلتم كذا وكذا ليكونن الجزاء أن أكفر

عنكم السيئات . ودلت « اللام » على القسم ، ودلت « إن » على الشرط فهى « إن » الشرطية .

والقسم - كما نعلم - يحتاج إلى جواب ، والشرط يحتاج إلى جواب أيضاً ، فالواحد منا يقول للطالب : إن تذاكر تنجح . والواحد منا يقول:« والله لأفعلن كذا » ، و« الله » هى القسم . و« لأفعلن » جواب القسم المؤكد باللام . وحين يأتى القسم فى جملة بمفرده فجوابه يأتى ، وحين يأتى الشرط بمفرده فى جملة فجوابه يأتى أيضاً . ولكن ماذا عندما يأتى القسم مع الشرط ؟ هل يأتى جوابان : جواب للشرط وجواب للقسم ؟ . عندما تجد هذه الحالة فانظر إلى المقدم منهما ، هل هو القسم أو الشرط ؟ ؛ لأن المقدم منهما هو الأهم ؛ فيأتى جوابه ، ويغنى عن جواب الثانى . والمتقدم هنا هو القسم ، تماماً مثل قولنا :

- لئن قام زيد لأقومن ، وهنا يكون الجواب جواب القسم ، أما إن قلنا : إن قام زيد والله أكرمْه ، فالجواب جواب الشرط ؛ فقدم الشرط على القسم . هذا إن لم يكن قد تقدم ما يحتاج إلى خبر كالمبتدأ أو ما فى حكمه ، فإن جاء والخبر أى المحتاج إلى الخبر فالشرط هو الراجح ، أى فالراجح أن نأتى بجواب الشرط ونحذف جواب القسم ؛ لأن الشرط تأسيس والقسم توكيد . وابن مالك فى الألفية يوضح هذه القاعدة :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم
جـواب مـا أخّـرت فـهـو مُلْتَـزَمْ
وإن تـوالـيـا وقَـبْـلُ ذو خـبر
فـالشرط رَجِّحْ مـطلقا بـلا حَـذَرْ

والقسم قد تقدم فى هذه الآية ، لذا نجد الجواب هنا جواب القسم ، وهو : « لأكفرن عنكم سيئاتكم » .

وقوله الحق : « أقمتم الصلاة » يوضح أن الإقامة تحتاج إلى أمرين ؛ فروض تؤدى ، وكل فرض فيها يأخذ حقه فى القيام به . وبعد ذلك « وآتيتم الزكاة » وفى كتب الفقه نضع الصلاة ، والزكاة فى باب العبادات . وجاء التقسيم الفقهى لتسهيل إيضاح الواجبات ، لكن كل مأمور به من الله عبادة ؛ لأن العبادة هى أن تطيع مَن

تعبد فى كل ما أمر به ، وأن تجتنب ما نهى عنه ، فكل أمر إلهى هو عبادة .

وقلنا من قبل : إن الحق سبحانه قال :

﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ﴾

(من الآية ٩ سورة الجمعة)

وقوله تعالى :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الجمعة)

هنا نجد أمراً تعبدياً أن نترك البيع إلى الصلاة ، وأمراً تعبدياً ثانياً أن نتتشر فى الأرض ابتغاء لفضل الله بعد انقضاء الصلاة ، وأى إخلال بالأمرين ، إخلال بأمر تعبدى ؛ فأنت مأمور أن تتحرك فى الأرض على قدر قوتك حركةً تكفيك وتفيض عن حاجتك ليعم هذا الفائض على غيرك .

وقوله الحق : «وآمنتم برسلى وعزرتموهم » أى أن ينعقد الإيمان فى القلب فلا يطفو الأمر بعد ذلك لمناقشته ، وأن تعزروا الرسل ، أى وقرتموهم ونصرتموهم ، والعَزْر فى اللغة معناه المنع ، ولكن المنع هنا مراد به أن يمنع الناس عن رسول الله من يريده بسوء ؛ فإن أراد أحد من الأعداء السوء برسول من الله فليمنع المؤمنون هذا العدو عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأنت فى حياتك إن كان لك حبيب أراده إنسان بسوء ، وكنت لا تدركه لأنه بعيد عنك فأنت تتمنى أن تأخذ صاحبك وتحميه من أن يناله العدو . لكن إن كان العدو أمامك فأنت تصده عن حبيبك . فالعزر هو المنع ، أى أن تمنعه من عدوه وتحول بينه وبينه ، أو تمنع عدوه من أن يناله بشر . والرسول بالنسبة للمؤمنين به تكون حياته أغلى من حياتهم ، ففى أثناء المنع قد يصاب أحد المؤمنين ، وفى ذلك تعظيم للرسول ونصرة له وتوقير .

نقول ذلك حتى نرد على الذين يتصيدون ويقولون : علماء المسلمين لا يتفقون على شىء ، فمرة يقولون : إن « عزرتموهم » معناها « نصرتموهم » ، ومرة أخرى

يقولون : إن « عزرتموهم » معناها « منعتموهم » . ونقول : كل المعانى هنا ملتقية ، فالعزر هو الرد والمنع ، إما بمنع العدو عن الرسول ، وإمّا أن يمنع الناس الرسول من أن يناله العدو ، أو الاثنان معاً ، ويجوز أيضا أن يكون معنى « عزرتموهم » هو نصرتموهم . وكذلك يجوز أن يكون معناها « وقرتموهم » ؛ لأن التعظيم والتوقير هما السبب فى نصرة الإنسان للرسول .

وبعد ذلك يقول الحق : « وأقرضتم الله قرضاً حسناً » . ويدبر الحق لنا سياسة المال ، سواء للواجد أو لغير القادر ، فالواجد يوضح له الحق : لا تجعل حركة حياتك على قدر حاجتك ، بل اجعل حركة حياتك على قدر طاقتك ، وخذ منها ما يكفيك ويكفى مَن تعول ، والباقى رُدّه على مَن لم يقدر . ولو جعل كل إنسان حركة حياته على قدر حاجته ، فلن يجد من لا يقدر على الحركة ما يعيش به . ولنذكر جيداً أن الحق سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝ ﴾

(سورة المؤمنون)

وحين قال سبحانه : والذين هم للزكاة فاعلون، ليس معناها مجرد أداء زكاة، بل تعنى أن يتحركوا فى الحياة بغرض أن يتحقق لهم فائض يخرجون منه الزكاة ، وإلا فما الفارق بين المؤمن والكافر ؟ الكافر يعمل ليقوت نفسه ويقوت من يعول وليس فى باله الله ، أما مزية المؤمن فهو يعمل ليقوت نفسه ، ويقوت من يعول ويبقى لديه فائض يعطيه للضعيف ؛ فكأن إعطاء الضعيف كان فى باله ساعة الفعل . وهذا هو المقصود بقوله الحق :

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝ ﴾

(سورة المؤمنون)

أى أن كل فعل للمؤمن يُقصد منه أن يكفيه ويكفى أن يزكى منه . وهناك حق آخر فى المال غير الزكاة ؛ بأن يسد به ولى الأمر ما يحتاج إليه المجتمع الإيمانى بشرط أن يقيم ولى الأمر كل شرع الله .

والزكاة هى إخراج المال على نحو مخصوص ، أما الصدقة فهى غير محسوبة من الزكاة لكنها فوق الزكاة . وهناك القرض ، وهو المال الذى تتعلق به النفس ، لأن الإنسان يقدمه لغيره شريطة أن يرده ، ولذلك قيل إن القرض أحسن من الصدقة ، ذلك أن المقترض لا يقترض إلا عن حاجة ، أما الذى تتصدق عليه فقد يكون غير محتاج ، ويسأل دون حاجة ، وأيضاً لأن نفس المتصدق تخرج من الشىء المتصدق به ولا تتعلق به ، أما الذى يقدم القرض فنفسه متعلقة بالقرض وكلما صبر عليه نال حسنة ، وكلما قدم نَظِرَةً إلى ميسرة فهذا له أجر كبير ، هكذا يكون القرض أحسن من الصدقة .

فالحق يريد أن تفيض حركة الحياة بالكثير . وكيف يقول سبحانه : « وأقرضتم الله قرضا حسنا » وهو الواهب لكل النعم وهو الولى لكل النعم ؟ وكيف يهب الحق للإنسان النعم ، ثم يقول له : أقرضنى ؟

هو سبحانه وتعالى يحترم حركة الإنسان وعرقه مادام قد ضرب فى الأرض وسعى فيها ، فالمال مال الإنسان ، ولكن أخا الإنسان قد يحتاج إليه ، ولذلك فليقرضه ويعتبر سبحانه هذا قرضاً من الإنسان لله . ونحن نجد عائل الأسرة يقول لأحد أبنائه : بما أنك تدخر من مصروف يدك فأعط أخاك ما يحتاج إليه واعتبر ذلك قرضا عندى ، صحيح أن العائل هو الذى أعطى المال لكل من يعول ، فما بالنا بالذى أوجدنا جميعا ، وهو الحق سبحانه وتعالى ؟ لقد وهب كلاًّ منا ثمرة عمله واعتبر تلك الثمرة ملكاً لصاحبها . ويعتبر فوق ذلك إقراض المحتاج إقراضاً له .

ويصف الحق القرض بأنه حسن حتى لا يكون فيه مَنٌّ ، أو منفعة تعود على المقرض وإلا صار فى القرض ربا. ولنا الأسوة الحسنة فى أبى حنيفة عندما كان يجلس فى ظل بيتِ صاحبٍ له . واقترض صاحب هذا البيت من أبى حنيفة بعض المال . وجاء اليوم التالى للقرض وجلس أبو حنيفة بعيداً عن ظل البيت ، فسأله صاحب البيت لماذا ؟ أجاب أبو حنيفة : خفت أن يكون ذلك لونا من الربا . فقال صاحب البيت : لكنك كنت تقعد قبل أن تقرضنى . فقال أبو حنيفة : كنت أقعد وأنت المتفضل على بظل بيتك فأخاف أن أقعد وأنا المتفضل عليك بالمال .

والقرض الحسن هو الذى لا يشوبه مَنٌّ أو أذًى أو منفعة ؛ ولأن القرض دَيْنٌ ، وضع الحق القواعد :

﴿ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

فالحق يحمى المقترض من نفسه ؛ لأنه إذا علم أن الدين مكتوب ، يحاول جاهداً أن يتحرك فى الحياة ليسد هذا الدين ، ويستفيد المجتمع من حركته أيضاً .

وعندما يُكتب القرض فهذا أمرٌ دافع للسداد وَحَاثٌ عليه . لكن إن لم يكتب القرض فقد يأتى ظرف من الظروف ويتناسى القرض . ولو حدث ذلك من شخص فلن تمتد له يد من بعد ذلك بالمعاونة فى أى أزمة ، فيريد الحق أن يديم الأسباب التى تتداول فيها الحركة ، ولذلك يقال فى الأمثلة العامية : من يأخذ ويعطى يصير المال ماله . ويكون مال الدنيا كلها معه ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

وفى ذلك حماية للنفس من الأغيار ، ولم يمنع الحق الأريحية الإيمانية فقال :

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ ﴾

(من الآية ٢٨٣ سورة البقرة)

وهكذا يحمى الله الحركة الاقتصادية . ونجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الرحيم بالمؤمنين ، وقد بلغه أن واحداً قد مات وعليه دين ، فقال للصحابة : صلوا على أخيكم . لكنه لم يصل على الميت . وتساءل الناس لماذا لم يصل رسول الله على هذا الميت وما ذنبه ؟ كأن رسول الله أراد أن يعلم المؤمنين عن دين المدين فلم يمنع الصلاة ، ولكنه لم يصل عليه حفزا للناس ودَفْعاً لهم إلى أن يبرئوا ذمتهم بسداد وأداء ما عليهم من دين . وقال :

« من أخذ أموال الناس يريد أداءها ، أدى الله عنه . ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله »[1] .

فمادام قد مات وهو مدين وليس عنده ما يسد الدين ؛ فربما كان لا ينوى رد الدين ، وأن نفسه قد حدثته بألا يرد الدين .

(١) رواه البخارى وأحمد من حديث أبى هريرة .

وفى فلسفة هذا الأمر نفسياً نجد أن المقترض عندما يقترض شيئا كبيرا لا يستطيع أن يتجاهله أو ينساه ، ثم لا يمر بذهن الذى أقرض أن فلاناً مدين ، بل وقد تبلغ الحساسية بالذى قدم القرض ألا يمر على المقترض حتى لا يحرجه . ونثق أن الله قد قذف هذا الخاطر فى نفس المقرض لأن المقترض يريد أن يسدد القرض . أما إن تحرك قلب الدائن على المدين ، وجلس يفكر فى قيمة الدين ، فليُفهم أن عند الذى اقترض بعض ما يسدد به الدين ، أى أن المدين عنده القدرة على الوفاء بالدَّيْن أو ببعضه ، ذلك أن الله لا يُحرج من يَجِد ويجتهد فى السعى لسداد دينه .

« وأقرضتم الله قرضا حسنا » . وقد يقول قائل : كان السياق اللفظى يقتضى أن يقول : « أقرضتم الله إقراضا » ؛ لكن الحق جاء بالقرض الحسن ؛ لأن الإقراض هو العملية الحادثة بين الطالب للقرض والذى يقرض . وسبحانه يضع القرض الحسن فى يده ، ولنا أن نتصور ما فى يد الله من قدرة على العطاء . ومثل ذلك قوله الحق :

﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة نوح)

و« أنبتكم » تعبر عن عملية الإنبات ، والأرض تخرج نباتا لا إنباتا.فمرة يأتى الله بالفعل ، ويأتى من بعد ذلك بالمصدر من الفعل ؛ لأنه يريد به الاسم . و« أنبت » يدل على معنى وينشىء الله لكم منها نباتا .

وهكذا قال الله عن القرض : « وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم » وفى ذلك جواب للقسم ، ومن بعد ذلك يقول سبحانه : « ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار » وقد تكلمنا من قبل كثيرا عن الجنات . ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله : « فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل » ألم يكن الذى كفر من قبل ذلك قد ضل سواء السبيل ؟ بلى ، إنه قد ضل فعلا ، ولكن الذى ضل بعد أن جاء ذكر تلك النعم والثواب فيها فالضلال أكثر . وكلمة « سواء » نقرأها فى القرآن ونراها فى الاستعمالات اللغوية ؛ كمثل قوله الحق :

﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ﴾

(من الآية ١١٣ سورة آل عمران)

وسواء معناها وسط ، ومتساوون . والمعاني ملتقية ؛ لأنه عندما يكون هناك وسط فمعنى ذلك أن هناك طرفين . ومادام الشيء في الوسط فالطرفان متساويان ، وعندما نقول:وسط ، فهذا يقتضي أن نجعل المسافة بينه وبين كل طرف متساوية . ولذلك يجب أن ننتبه إلى أن كثيراً من الألفاظ تستعمل في شيء وفي شيء آخر ، وهذا ما يسمى بالمشترك اللفظي . . أي اللفظ واحد والمعنى متعدد ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة البقرة)

والشطر هو الجهة . والشطر هو النصف . النصف هو الجهة بمعنى أن توجه إنسان ما إلى الكعبة يقتضي أن يكون الإنسان واقفاً في نقطة هي مركز بالنسبة لدائرة الأفق . وهذه النقطة بالنسبة لمحيط الأفق تقطع كل قطر من أقطارها في المنتصف تماماً . إذن . فعندما يقول:الجهة ، نقول : صدقت ، وعندما يقول النصف . نقول : صدقت .

« فقد ضل سواء السبيل » والقرآن قد نزل على أمة تعيش في البادية وطرقها بين الجبال ، وقد يكون الطريق معبّداً من ناحية ، وقد يكون الطريق بين هاويتين . وقد يكون الطريق بين جبلين ، ومن يأخذ بالأحوط فهو يمشي في الوسط . ولذلك قال الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ : اليمين والشمال مضلة وخير الأمور الوسط ؛ لأن الإنسان قد يتجه يميناً فيقع . أو يتجه شمالاً فيقع ؛ أو تقع عليه صخرة . ونجد الوالد ينصح ابنه فيقول له : امش ولا تلتفت يميناً أو يساراً واتجه إلى مقصدك . ونجد الحق يصف الطريق الذي يمشي عليه المؤمن يوم القيامة :

﴿ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة الصافات)

وسواء الجحيم هو نقطة المنتصف في النار ؛ أي أنه لا يستطيع الذهاب يميناً أو شمالاً . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا